

أثر المنابع الرئيسية في تأسيس علم التداولية

ط/د. نذاح عبد القادر

جامعة سيدي بلعباس

أضحت التداولية من أهم المناهج التي تُعالج بها الخطابات والنصوص على اختلافها، وذلك لما لها من إجراءات تمكنها من سبر أغوار النصوص المنطوقة والمكتوبة واستنتاج كنهها، إلا أن التداولية لم تبرز من العدم، بل جاءت نتيجة جهود كثيفة ومتعاقبة من قبل تيارات فلسفية ولسانية اختلفت مشاربها فأسهموا في بنائها، والتي سنمثلها في:

1- السيميائيات المنطقية المرتبطة بنادي فينا (cercle de veinne).

2- سيميائيات شارل موريس (charle mouriss).

3- البراجماتية الأمريكية (pragmatisme)، يمثلها شارل سندرس بيرس.

ومن هذا المنطلق سنخرج على هذه التيارات لمعرفة علاقتها بالتداولية، وكيف نظرت لهذا العلم الذي لا يزال خصباً إلى يومنا هذا.

- نادي فينا (cercle vienne): ظهر عام 1920م، لم يكن في بدايته منتظماً ثم تحول في عام 1929 م إلى جمعية أو نادي منظم مكنه من إصدار مجلة سميت (نظرية المعرفة) عام 1930 ساهمت في نشر سلسلة من النشرات وأعمال المؤتمرات¹، كانت تسعى لتطوير الوضعية المنطقية، كما أنه جمع فلاسفة وعلماء تنبها إلى وجود اهتمامات مشتركة في العلوم والرياضيات، فأصبح محور البحث الفلسفي لديهم هو اللغة من حيث التركيب، المعنى، الدلالة والتداولية، ولتساوي هؤلاء العلماء في الدرجة العلمية يمكن عدم اعتباره نادي فلسفي محض.

كما تعددت في البداية تسميت النادي مثل: "الوضعية المنطقية أو التجريبية المنطقية امتداداً لتجربة دفيد هيوم (davidhume) وجون ستوارت مل (john stuart mill) وإرنست ماخ (Ernstmach)، ويعدّ صدى للاهتمام بالمنهج العلمي على نحو عبّر عنه كل من هنري بوانكاريه (hanry poincare) وأينشتاين (einstein)، كما كان نتيجة لازدهار المنطق الرياضي الرّمزي على يديبوانو (peano)، جورج بول (george booll)، إرنست شرودو (ernestshroder)، وغيرهم². فأعطى هذا النادي احتراماً تاماً للعلوم التجريبية، وأبدى عداؤه للميتافيزيقا والأهوتية، ومدّ لنفسه اهتماماً بالغاً لدى فلاسفة التحليل خاصة في جامعة أكسفورد الإنجليزية، وحافظ على هذا الاهتمام حتى بعد انحلاله في الثلاثينيات، ومن أبرز زعمائه: شليك، نورث فايزمان، رودولف كارناب وفرانك.

ومن جملة البحوث التي ساهمت في بناء التداولية لهؤلاء الرواد مثل شليك تجسّدت في:

- جعل وظيفة الفلسفة معرفة معاني الألفاظ والقضايا.

- محاولة إيجاد نظرية معقولة لمبدأ التحقق وصدق المعنى.

- جعل النظريات الفلسفية القديمة لا خطأ ولا صواب بل خالية من المعنى لأنّ قضاياها ليست تحليلية مثل القضايا الرياضية، ولا يمكن التحقق من صدقها كما هو الحال في العلوم التجريبية.

-محاولته لوضع نظريات للعلوم، ومقياس المعنى و اللامعنى ،والتحقق من الصدق والكذب، وتحليل التجارب للحفاظ على التجارب المشتركة.³

أما نوارث انصبت أعماله على اللغة كما أسس مجلة الطبيعية (physicalism) ومعناها أن القضايا التجريبية بما فيها الاجتماعية و النفسية منطوقات، ليست نتيجة تحصيل حاصل ، ولا تمثل أشياء مادية في الخارج أو هي "ليست قضايا تحليلية تركيبية بل هي قضايا لغوية لها منطقها من حيث هي منطوقات. ويمكن أن تطلق على الموضوعات الزمانية والمكانية. وهي تسمح بفهم مشترك بين الذات وبلغة علمية واحدة. ويمكن التحقق منها عن طريق مراجعتها على منطوقات أخرى أفضل من مراجعتها على التجربة".⁴ كما لرودولف كارناب بصمته أيضا في هذا المقام ومن بين أهم مؤلفاته "البناء المنطقي للغة"، عالج فيه التحليل المنطقي للمعنى وبدأ يفرق بين القضايا التركيبية والقضايا التحليلية في اللغة المنطقية، والتحليلية يمكن التعرف عليها بتحديد علاقة المعنى بالحدود النظرية، وحدد الفرق بالفصل بين الصدق التحليلي، والصدق المنطقي في اللغة النظرية والمحافظة على الحدود والقضايا النظرية. وينظر كناناب للغة على أنها ليست قواعد تبني جملا وتركبها بل هي دلالة على الواقع وتعبير عنه بالدرجة الأولى، وتمكن هذا الأخير، "من التمييز بين مصطلحات هي علم الاستعمال، وعلم الدلالة، والنحو المنطقي، فجعل علم الاستعمال (pragmatic) ، لدراسة المتكلم أو مستعمل اللغة بصفة عامة، وعلم الدلالة (semantic) لدراسة التغيرات ودلالاتها مع صرف النظر عن مستعمل اللغة، أما النحو المنطقي (logical syntax) ويختص بدراسة العلاقات بين التعبيرات، ويجمع هذه العلوم الثلاث ما يسمى بعلم العلامات (sémiotique).

وبهذا كان لابد على أعلام نادي فيينا الاستناد على المنطق في رفض أو قبول فكرة ما، وذلك بتحليل العبارات والألفاظ تحليلًا والتحقق من بنائها وتركيبها، وحافظ المنتمون إلى النادي على أفكاره حتى بعد انحلاله لفقدان بعض بمؤسسيه، ووجود ضغوطات على النادي من قبل الحكم النازي .

-البراجماتية الأمريكية (pragmatisme) مع شارلس ساندريس بيرس :

ساهم الفلاسفة الأمريكيون بشكل جلي في بناء التداولية أمثال وليم جيمس، جون ديوي، جورج هيربرت ميد، تقيس، شارل موريس، لويس، إلّا أن بيرس كانت له بصمة خاصة في هذا المجال إذ اعتبرها "منهج فلسفي لتأسيس المعاني و التصورات والاعتقادات ابتداءً من أن فكرة الإنسان عن أي شيء هي آثارها الحسية طبقاً لدلالاتها العملية. أما الأفكار الصحيحة فهي ما تثبته الفحوص الدقيقة والبحث الرصين. ويميّز بين الاعتقاد و الشك".⁶ وهكذا بدأ ينظر لها ويؤسس لها أدوات إجرائية، تعيد بناء أفكار الآخر من أجل فهم ما يريد إيصاله، وبما أنه كان من رواد المنطق الحديث ومؤسس للبراجماتية (التداولية الآن) جمع بينهما، لتكاملهما فالأول بحث نظري والثاني نزعة علمية، وقبل أن نتدرج أكثر توجب علينا معرفة التداولية لماذا سماها بيرس بالبراجماتية وذلك في: "فما على الكاتب - وقد وجد برجماتيكته الوليدة بلغت أشدها - إلا أن يشعر بأن الوقت قد حان لكي يقبل وليده قبله الوداع ويتركه لمصيره الصاعد، وهو في نفس الوقت لكي يخدم الغرض الدقيق للتعبير عن التفسير الأصلي فإنه يتوصل ليعلن ميلاد كلمة البراجماتيكية pragmatism التي فيها من القبح الكافي ما يحميها من الخاطفين".⁷ يعني أن هناك من أرادوا أن ينسبوا هذا العمل لأنفسهم مما اضطر بيرس

إلى انتقاء مصطلحات غامضة لبحثه وتوظيفها لحماية عمله وتمييزه عن بقية أعمال غيره، إلى أن نضج عمله وعرضه بنفسه للعامة ليؤدي عمله، وبهذا أي عمل لا يعرج على مؤسسها، يعد ناقصا وتقليلا للمجهودات الكثيرة التي صاغت نظرية المعنى البراجماتية.

الاعتقاد عند بيرس: -تأثر بيرس بالمفكر الانجليزي ألكسندر باين، ومفهومه للاعتقاد، إذ يريانه "هو ذلك الشيء الذي يصبح على أساسه الإنسان مستعدا للفعل، وهذا ما دعا (بيرس) إلى أن يُسمي (باين) جَدّ البراجماتيين"⁸ الاعتقاد أيضا عند بيرس هو "النغمة النصفية التي تختتم جملة موسيقية في سمفونية حياتنا الفكرية".⁹ بمعنى الاعتقاد التحول من فكر قلق إلى فكر مستقر، ولا يعني عنده الحكم الثابت، فهو بمثابة النغمة من حيث الاستمرار و التوقف في الآن ذاته، فينتج فكرة معينة تكون مثابة انطلاقة لإنتاج مجموعة من التصورات والأفكار، وكأنّ هناك حالة توقف مؤقتة للفكر، كما لو أنّه إيمان نسبيّ للفكرة ريثما يأتي ما يستدعي الشك لنصل به إلى اعتقاد آخر للفكرة، مما قد يشكل لنا أثرا على حياتنا المقبلة وحتى في تفكيرنا المستقبلي يكون كأثر فعلي للفكرة ذاتها.¹⁰

حدّد بيرس للاعتقاد ثلاث خواص هي:

1- أنّه شيء نحن على وعي به.

2- أنّه يهدئ الاضطراب الناشئ عن الشك.

3- بأنّه يتضمّن قاعدة للفعل بطبيعتنا أو بكلمة موجزة عادة habit.

وقد ميّز بيرس بين الاعتقاد العملي والنظري، كما جعل له مناهج تساهم في تثبيته، والاعتقاد الأول هو الذي يمكن لنا الوصول عن طريقه إلى سلوك معين أو عمل معين لإنجاز عمل ما، بمعنى الاعتماد على التجارب القبلية التي تمكننا من وجود حقائق يمكن التفاعل معها، أمّا الثاني فيستند على التوقع والتصرف كمرتكزين يساعدان في تنظيم الحقائق، فللملاحظة هنا دور كبير في تشكيل صورة معينة.

المعنى عند بيرس: هذه النظرية التي أسسها بيرس للمعنى مفادها تحرير الأفكار المبهمة، كما تعزّز الأفكار الواضحة، وقد مرّت هذه النظرية بمحطتين أساسيتين تمخضت عنهما المحطة الأخيرة وهي البراجماتية وتمثّلت الأولى في:

أ- بيرس مع الوضوح والتميّز: تمثّل هذا العنصر في نقد بيرس لديكارت ومنظوره للوضوح والتميّز، إذ يرى بيرس "الوضوح لا يعني سوى التآلف مع الفكرة".¹¹ والذي كان يؤمن به ديكارت إلّا أنّه تخلى عنه، فالحكم على الأفكار بالبسيطة والواضحة لدى ديكارت يكون بقاعدة البدهة واليقين، التي لا تعترف بحقيقة الشيء ما لم تتيقّن من ذلك، نقاديا لأيّ حكم مسبق أو تهوّر يعكّر صفو العقل للوصول إلى دقّة الحكم، الفكرة الواضحة لدى ديكارت هي الخالصة المتجلية، أمّا المتميّزة التي بلغ وضوحها واختلافها عن كلّ ما عداها، ولأنّها لا تحوي إلّا ما يجدر بها حمله وهذا للذي ينظر إليها ببصيرة ثاقبة.

وبالرغم من كلّ هذا بدا لبيرس أنّ ديكارت لم يوفّق في التمييز بين وضوح الفكرة من عدمها، لأنّ بيرس لديه جميع الأفكار حقيقية، وأرجع عدم التوصل لنتيجة إيجابية لدى ديكارت بسبب اختلافه مع خصومه حول مبادئ أساسية، كما رأى أنّ التميّز كان اعتباطيا لديه وذلك بتوظيف الاستنباط الذاتي الذي برّر به اعتقاد

وجود الله، وفسر عجزه عن تبرير بعض الأشياء بالغموض وعلى أن الله خلقها هكذا، فلاحظ بيرس أن لايبنتز هو من قام بتطوير معرفة الأفكار الواضحة والتميّزة لدى فلسفة ديكرت.

ب- بيرس و لايبنتز : في المحطة يسعى بيرس لإعطاء لكل فكرة وكلمة تعريفاً دقيقاً وبصورة مجردة، ورد عمل لايبنتز على الفكرة الواضحة جاء متطابقاً مع ما أراده بيرس والذي تمكّن من توضيح المعنى الذي أراده ديكرت من تمييز الأفكار والتباسها وبين أوجه الاختلاف بين التمييز والالتباس عن الوضوح والغموض، والذي قال بشأنه: "تكون الفكرة واضحة إذا كانت كافية في أن تجعلنا نتبين شيئاً أو نتعرف عليه وتكون غامضة إذا لم تكن كافية لذلك، فمثلاً إذا كنت أبحث عن شيء ثم عرض لي ذلك الشيء فلم أتبينه فمعنى هذا أنني لا أعرف بوضوح عن أي شيء أبحث ولكنّ الفكرة الواضحة ولو أنها تكفي في أن تجعلنا نتبين أو نميّز موضوعها من بين موضوعات كثيرة أخرى فهي ليست بذلك وحدها فكرة متميزة بل ربما كانت ملتبسة جداً فقد نجد مثلاً عند الصياد فكرة واضحة عن مختلف أنواع الأسماك وعند البستاني فكرة واضحة عن مختلف أنواع النباتات في البستان غير أن فكرة الصياد والبستاني لا تخلوان في ذلك من كثير من الالتباس في حين أن نفس الفكرتين هما متميزتان عند عالم الطبيعيات الواقف على دقائق تشريح الأسماك والنباتات ووظائف أعضائها ومن هنا نرى أن الفكرة المتميّزة هي الفكرة التي يدرك العقل مضمونها إدراكاً بيّناً".¹² وأطللت في المقتبس كي يرد المعنى كاملاً، وبهذا تمكّن لايبنتز من توضيح اللبس الذي جرى على ديكرت للتمييز بين "الفكرة الواضحة" و "الفكرة الواضحة المتميّزة" فالمعرفة تكون مبهمة إذا أخفنا في التعريف بالشيء الذي نريد تقديمه خاصة في تمييزه بالأمور المقاربة له، ويرجع هذا إلى الشخص الذي يفقد تعداد العلامات أو التعريفات الأساسية للشيء الممثل له.

كما أن لايبنتز ميّز بين معرفة مميّزة غير وافية ومعرفة مميّزة وافية تعتمد على تحليل تام والتي لا يمتلكها البشر أمّا الأولى فترجع للبشر الذي يعتمد فيها على التحليل في مجال العلوم التجريبية وتبقى غير وافية، أي - أنها نسبية النتائج -، ومن هذا المنطلق نرى بيرس أنه أحدث ترابطاً تكاملياً بين ما توصّل إليه ديكرت ولايبنتز من أفكار، إلا أنه رأى هذا الأخير أصاب ما أخفق فيه الأول (إعطاء تعريف لكل مصطلح، إبراز أهمية العقل، والمعرفة الحدسية والقلبية)، ولكن لم يعط أهمية للمعرفة التجريبية مما أمكن بيرس من تكوين معرفة واضحة حول المعنى من مفكرين بارزين استخلصت في :

1- لفهم كلمة أو صيغة فإنّ ذلك يتوقّف على التآلف مع تلك الكلمة أو الصيغة بما يسمح للمرء باستعمالها بشكل صحيح.

2- توضيح الفكرة يتوقف على التحليل المجرد للمفهوم وفهم علاقته الفكرية مع المفاهيم الأخرى.

وهذا سيوصلنا إلى معرفة نتيجة ظاهرية وعملية للمدرك الحسي مما سيجعلنا نلج إلى مبدأ البراجماتية وهي الدرجة الثالثة من الوضوح لدى بيرس والمهمة.

ج- مبدأ البراجماتية: يعتمد على البحث عن الآثار و النتائج، التي ستكون كبرهان فاصل بين الفلاسفة فيما يخص القضايا المتخالف عليها، كما بإمكانها التعرف على المعنى الموظف للكلمة أو العبارة بشكل سليم أو مخالف، لهذا حدّد بيرس ثلاث نقاط لتحديد معنى كلمة.

أولها :-الكلمة معنى يمكن الاستفادة منه للتواصل للحصول على المعرفة التي نسعى إيصالها للطرف الآخر.

ثانيها :-يمكن أن يكون معنى الكلمة هو بمثابة جملة تخمينات يتعمّد الشّخص استعمالها داخل جملة أو عبارة ،حيث يكون مسؤولاً عنها أو ينكرها قصداً،وهذا الوعي أو شبه الوعي هو الذي يحكم معنى الكلمة. ثالثها: -يمكن أن يكون للكلمة آثار غير مرئية تستدعي تقبلها،نابعة من ثورات المجتمع وتتنافى مع المعرفة، لهذا لا يمكن إدراك فاعليتها وقيمتها في تغيير حقيقة العالم، فالآثار تلعب دوراً في بناء المعنى لدى بيرس.

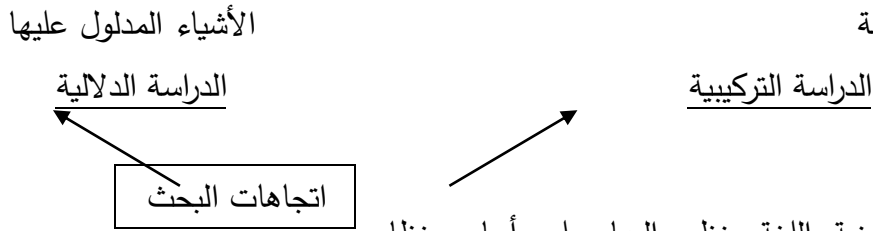
سيمائية شارل موريس: تمكّن موريس الإلمام بالأعمال التي توصّل إليها سابقوه في هذا العلم أمثال ميد وبيرس،وذلك باستغلال النظريات المتحصّل عليها كالتداولية الاجتماعية و التجريبية المنطقية والمنطق البيروني كما أعطى أهمية لنتائج المدرسة السلوكية،وهذه الأخيرة جعلت موريس يضيف إلى ما توصّل إليه بيرس البعد السلوكي (dimonsion behavioriste) ،وهذا لسيرورة الدليل،فيراها موريس"يحتوي على أربعة عناصر هي:

-العنصر الذي يقوم مقام الدليل أو الناقل porteur .

-العنصر الذي تتم إحالة الدليل عليه أو"المدلول عليه".

-عنصر الأثر effet الذي يحصل لدى المرسل إليه والذي يبدو له وكأنّه الدليل أو المؤلّ.

-المؤلّ interprète¹³ فالسيمائيات لدى موريس يملّي فيها اهتماماً لسلوك الجسم وكيفية تعاطيه مع محيطه لكونه جزء يفعل فيه ما يفعل،كما يتفاعل به أيضاً ، فوظيفة وأهمية المحيط عاملان أساسيان في إرضاء حاجياته،وللعناصر الأربعة أهمية في سيرورة الدليل الذي يسهل عملية البحث في العلاقة القائمة بين الأدلة و الأشياء للوصول إلى البعد الدلالي ،الذي من خلاله يساعدنا في فهم المؤلّين أثناء استخدام الأدلة،وبهذا تمكّن الأستاذ جيلالي دلاش من رسم خطاطة لتصوّر موريس جاءت كما¹⁴يلي :



يرى موريس أنّ بنية اللغة ينظر إليها على أساس نظام سلوكي،والتسمية(الدلالة) تعطي للمرسل إليه صورة لما سيفعله أويقوله على نحو:"لص موجود داخل المنزل". فالمرسل إليه سيتخذ ردّة فعل تنعكس على سلوكه ، بحيث يصبح للقول والمقام داخل مجال اللغة وظيفة تقييمية ،وإذا قلنا"ما أسرع العداء."هنا أيضاً يتّخذ المتلقي ردّة فعل تنعكس على سلوكه إيجاباً أو سلباً ،مما يجعلنا ننتقن من اضطلاعه على الوظيفة التقييميّة التي تجعله يأخذ سلوكاً اتجاه شيء أو فعل أو حدث،ولو كان قراراً أو أمراً.

الخاتمة :

لعبت هذه المدارس دوراً فعالاً في بناء تداولية اليوم، بفضل ما حملته من نظريات معرفية مختلفة "كنظرية المعنى" "نظرية العلامة"، والأهم هو أن أعمالهم ارتكزت على الجهود العلمية التي قام بها علماء سبقوهم في البحث التجريبي، التحليلي، المنطقي، اللغوي، التركيبي والعلاماتي.. وغيرها من البحوث، أدى إلى وجود أرض خصبة ساهمت في وضع الأسس الأولى للتداولية، ليصبح فيما بعد علماً يدرس ويهتم بكل ما له علاقة باللغة، ومدى تأثيرها حالة استعمالها للتواصل الاجتماعي، فألّموها بجوانها وطرقوا على كل ما من شأنه إيصالهم للحقيقة أو الملكة التبليغية للغة أيّاً كانت.

الهوامش:

- ¹ حسين حنيفي، مقدمة في علم الاستغراب، مجد، بيروت، ط2006، ص318.
- ² محمد عبد الرحمن جابري، نظرية العلامات عند جماعة فيينا - رودولف كارناب نموذجاً - دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط2010، ص15.
- ³ ينظر، حسين حنيفي، مقدمة في علم الاستغراب، ص319.
- ⁴ حسن حنيفي، مقدمة في علم الاستغراب، ص319.
- ⁵ Rudolf canap , introduction to semantics, Cambridge, massharvard university, presse, 1942, p9, 10.
- ⁶ المرجع نفسه، ص315.
- ⁷ علي عبد الهادي المرهج، الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها - مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها شارلس ساندرس بيرس، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2008، ص159.
- ⁸ علي عبد الهادي المرهج، الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها، ص117.
- ⁹ معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، ج2، ط1981، ص275.
- ¹⁰ علي عبد الهادي المرهج، الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها، ص119.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص138.
- ¹² رينيه ديكرت، التأملات، تر يوسف الحاج، منشورات عويدات بيروت، ط1982، ص105.
- ¹³ الجيلاي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1992، ص11، 10.